رثاء الشيخ عبدالله بن خلف الدحيان

الشاعر: سلطان بن قبلان المطيري

إعداد:

جزء من مقالة الدكتور يعقوب الغنيم حفظه الله يتحدث عن قصيدة ابن قبلان في الشيخ الدحيان رحمه الله:

" هذا ولم يكن الشعر الفصيح وحيدًا في ميدان الرثاء، فقد قام برثاء الشيخ عبدالله الخلف الدحيان عدد من الشعراء الذين اعتادوا على أن يكون تعبيرهم الشعري باللهجة الدارجة فيما يسمى "الشعر النبطي"، وهنا أود أن أستعرض ما رثى به الشيخ بهذا النمط من الشعر، ففيه إشارة إلى مكانته، وعظم المصيبة بوفاته.

ذلك أني لما وجدت أن هذا النمط من الشعر لم يتطرق أحد إليه ولم ينشره ضمن المراثي التي قيلت في الشيخ الجليل فإنني وجدت أنه من الأفضل أن أقدم شيئًا منه هنا.

وقبل أن أعرض ما لدي من شعر نبطي أقدم هذه النبذة عن حياة الشيخ عبدالله الخلف الدحيان، ولقد كانت حياة رجل عالم فقيه من أهل الخير يستحق ما كتب عنه.

هذا الرجل من علماء الكويت القدماء الذين ورد ذكرهم في مختلف مجالات الحياة، فهو قاض ومعلم وخطيب ومشارك في الأنشطة المختلفة في البلاد، وهو قبل كل ذلك رجل فقيه ورع، يعد من الصالحين الذين وثق الناس بهم، فصار

مستودع الأسرار وموضع الفتيا، يتلقى الناس أحكامه بالقبول ويستمعون إلى نصائحه، ويتبعون ما يشير به عليهم.

ولد الشيخ عبد الله الخلف الدحيان في سنة 1292 هـ التي توافق سنة 1875م، وقرأ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على أبيه، ولازم الشيخ محمد بن فارس منذ كان في سن الثانية عشرة، ورحل في طلب العلم إلى عدة بلدان، وعندما سافر إلى مكة المكرمة بعد ذلك بنية الحج لقي عددًا من علمائها.

كان مشهودًا له بالعلم الغزير والصلاح والوداعة والأخلاق الحميدة والزهد في الدنيا، يستشعر دائمًا تقوى الله، ويتحلى بالورع، ولذا فقد كان مسجد البدر الذي يؤم فيه الناس ويخطب فيه خطبة الجمعة يغص بالناس الراغبين في سماع خطبته رغبة في الاستفادة مما يقدمه في هذا اليوم من أحاديث وعظات قيمة، وما يستمعون إليه منه من إرشاد وتوجيه، وبالمثل فإن منزلة كان قبلة لطلبة العلم يأتون إليه ويتلقون عنه العلم، ولذا فإننا نجد عددًا كبيرًا من علماء الكويت قد تتلمذوا عليه، ونجد عددًا آخر من رجال البلاد كانوا من تلاميذه، ولشدة ورعه فإنه كان يأبى العمل في سلك القضاء، وعندما ألزمه الشيخ أحمد الجابر الصباح بذلك في سنة 1929م باعتبار عدم وجود من هو أجدر بهذا

المنصب منه فإنه لم يستمر فيه إلا سنة واحدة لم يأخذ عليها أجرًا.

ترك مكتبة كبيرة تحتفظ بها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وألف عددًا من المؤلفات النافعة منها المسائل الفقهية والفتوحات الربانية، ورسالة في مناسك الحج، وخطب الجمعة والعيدين، وله شعر جيد منه القصيدة الخاصة بالحج، التي يعرفها محبوه، توفي في سنة 1349هـ التي توافق سنة 1921م. رحمه الله وأحسن مثواه، هذا وقد قام مركز البحوث والدراسات الكويتية بإصار كتابعنه تحت عنوان: "علامة الكويت. الشيخ عبدالله الخلف الدحيان" ألفه الأخ الشيخ محمد بن ناصر العجمي، واستطاع أن يجمع فيه كثيرًا من المعلومات عن هذا الرجل المبارك الذي لا تزال آثاره العلمية موجودة بيننا في الكتب وفي البشر الذين يتناقلون العلم بينهم منذ وفاته إلى اليوم.

أما الشعر الذي ألمحت إليه فيتمثل بقصيدتين قالهما الشاعر سلطان بن قبلان المطيري، ونشرهما الشاعر مسعود بن سند بن سحيان في كتابه: "التحفة الرشيدية في الأشعار النبطية" الذي صدر في سنة 1389هـ التي توافق سنة 1969م، ويبدو أن قائل القصيدتين ممن كان قريبًا إلى الشيخ بحيث يعرف كثيرًا من صفاته الكريمة، بدأ قصيدته الأولى بقوله:

شهر الصيام وفي توالي ارمضان	الله من خطب دها يوم الاثنين

خطب دهاني ما دها مودماني	خطب عظيم يوم ثامن وعشرين

)مودماني: إنسان.(

واستمر يصف وقع خبر النعي عليه، وكيف أنه شعر بكدر عظيم، وأنه لم يستطع السيطرة على نفسه، ويبدو أنه قد حضر جنازة الشيخ عبد الله لأنه وصف في قصيدته هذه ما حدث من الغسل والتكفين إلى الدفن، ومن ثم قام بالترحم على الشيخ، وأخذ يعدد شيئًا من أعماله الطيبة مثل قوله:

يافاعل المعروف سروبياني	مرحوم يا شيخ الهدى راسخ الدين
يا مال طيبا يا عريب المجاني	مرحوم يا ريف الضعوف المساكين
سهل الجناب الطيب المرحباني	مرحوم يا شيخ على العسر واللين

إلى أن يصف أحكامه العادلة حين تولى القضاء، ويذكر مساواته بين الناس، وأنه درع للمظلومين ثم يعتذر عن قصر قصيدته مع أنها جاءت في أربع وعرشين بيتًا فيقول:

هو جاس قلبي قاصر من لساني	حبيت أطولها ولا أدركت تمكين

ويظهر لنا من هذا البيت أن الشاعر، بعد أن كتب قصيدته هذه أحس أن في نفسه أشياء يود لو كان قد عبر عنها، فاستأنف حديثه بقصيدة أخرى، يبدو

أنه قالها بعد فترة وجيزة من قصيدته الأولى، وبعد أن مرت عليه بضعة أيام دون أن يغادره الحزن على فراق الشيخ وجاءت هذه في سبعة وعشرين بيتا مطلعها:

ساهر ودموع عيني ساهرين	البارحة بالصوت جاوبت الحمام
ويل للي بالمضاجع نايمين	ياحزين القلب مثلي لا تنام

وقد تحدث فيها عن أحزانه، وقدم النصح للغافلين من الناس، وذكر بالموت الذي يقطع كالسيف الحاد، ثم قال: إن البلاد أظلمت عندما انهدم ركن من أركان الدين ويتساءل: أين شيخ الدين، راعي الحق، ويضيف:

ابكوا المحمود من قلب حزين	ابكوا المحمود يا جمع الأنام
له بكن عيوننا والحاضرين	من بكى شيخ الشريعة ما يلام
مرتكي للحق والله ما يلين	ذروة الإسلام في رأس السنام
مخلص لله رب العالمين	ما أخذ رشوه ولا ذاق الحرام

ثم يعود للترحم على الفقيد، ويطلب من السامعين أن يقوموا بالدعاء له فهو يستحق أن نقف له داعين مترحمين، ذاكرين لأفعاله الكريمة، محتفظين بذكراه النيرة على مر السنين.

وبعد استعراض هاتين القصيدتين فإنه يتبين لنا أن الشاعر كان شديد التأثر بوفاة الشيخ عبد الله الخلف، وكان قريبًا منه بحيث شعر بدوره في الحياة وإفادته للناس في كثير من المواقف، وقد دلت مشاركة الشعر النبطي على أن كافة الناس في الكويت كانوا يرون أن في وفاة هذا المصلح خسارة كبيرة لهم وللكويت بصفة عامة، وهذا هو ما أعطى القصائد كلها روحًا قوية معبرة، رحم الله الشيخ وأجزل مثوبته."

المصدر: مجلة الوعي الإسلامي عدد (476).

نص القصيدتين:

التحفة الرشيدية

في الأشعار النبطية

لجامعها

مسعود بن سند بن سيحان

الجزء الثاني

١٩٦٩ م – ١٣٨٩ هـ

حقوق الطبع محفوظة

ALRawie8

سلطان بن قبلان المطيري

قال هذه القصيدة في رثاء المرحوم الشيخ عبدالله بن خلف بن دحيان :

سالله مـن خطب دهـى يـوم الاثنين ... شهر الصيـام وفي تـوال رمضـاني
خطب عظيـم يوم ثامـن وعشرين ... خطـب دهـاني ما دهـى مودماني
جـاني وصوت لـي عسى فاله الشين ... وكلش شعر جنبـي من اللـي غشاني
وفريت من عظـم الكدر خاطري شين ... مثـل المدهده مـا لقـى لـه مكاني
قـالوا توفى الشيـخ وانهلت العـين ... دمـع يشاد الوبـل والمرهشـاني
بكيت يـوم الشيخ اقفى بـه البين ... لعـل روحـه في نعيـم الجنـاني
غسـل وكفـن بالكفـن والحـزامين ... يا مـال طيبـا يا سهيـل اليمـاني
وصلوا عليـه وروحوا فيـه عجلين ... ملتمة مـا بين قـاصي ودانـي
حطـوه في قبـر وسدوه بالطـين ... رشوه بالمـا والشواهـد بيـاني
خلـي مع اللـي في وطنهـم مقيمين ... في بـرزخ هـم فيـه لاتلـى زماني
لعـل قبر بـه دفـن موفي الديـن ... يزيـه ربي مـن حقـوق الغشاني
مرحوم يا شيـخ الهدى راسخ الدين ... يا فاعـل المعـروف سر وبيـاني
مرحـوم يا ريـف الضعوف المساكين ... يا مـال طيبـا يا عـريب المجـاني
مرحوم يـا شيخ علـى العسر واللين ... سهـل الجناب الطيـب المرحبـاني
مرحـوم يا مـن بين الحـق تبيين ... يا نافـل جيـله بفعـل الحساني
مرحوم ياللـي منـه الاسلام راضين ... يضرب بحكـم الله بليـا توانـي

الناس عنـــده بالحقـــوق متواسين ... يا مـــا درع في ظـــالم هلقمـــاني
بالحق مـــا يـــدري الكبـــار المسمين ... فتـــــواه يمضيها علـــى كـــل جـــاني
ينفي هـــل البدعـــه وينفـــي المضلين ... ورع بدينـــه مـــــا يجـــي بالتداني
اللـــه يثبـــت قلوبكـــــم يا المحبـــين ... صبـــر جميـــــل واللـــه المستعـــاني
حبيت اطولهـــا ولا ادركت تمكـــــين ... هوجاس قلبـــي قـــاصر مـــع لساني
يا سامعين اطلبـــــوا وقولوا آمـــين ... عسى الخـــلف ياللي بقـــى بالمكـــاني
ارجـــي عساهم قـــــــوة للمصـــلين ... في حـــق مـــــا بآيات سبع المثـــاني
وصلوا علـــــى ختم الرســـل والنبيين ... اللـــي بعث بالحـــق نـــــور وبيـــاني

وله هذه القصيدة الرثائية ايضا قالها في رثاء المرحوم الشيخ عبدالله بن خلف :

البـــارحة بالصوت جـــاوبت الحمـــام ... ساهـــر ودمـــوع عينـــــي ساهرين
يا حـــزين القـــلب مثـــلي لا تنـــــام ... ويـــل للـــي بالمضـــــاجع نايمـــين
السفـــن تمشي بسيـــــول الانـــــام ... والقـــدر يجـــري بشرع الخاطفـــين
يا ابـــن آدم غـــافلين كـــــل عـــام ... بالشـــرا والبيـــع وانتـــــم غـــافلين
هـــادم اللـــذات ناصب لـــــه خيـــام ... يقطـــع الارحـــام بالسيـــف السنـــين
اظلمت البـــــلاد واشتـــد الظـــلام ... واصجـــــن قصـــــورها كالخـــاربين
وانهـــدم ركـــــن المقـــــره والمقـــام ... طـــاح تاج العـــز في دنيـــــا ودين
غـــاب بـــدر الخمس مـــع عشر التمام ... واختفـــى نـــوره ولا ظنـــــي بيـــين
يا هـــــل التقوى ويا جمـــع الكـــرام ... شا البصر شا الراي شا انتـــم شايفين
ويـــــن شيخ الديـــن وزمام العوام ... ويـــــن راع الحـــق للـــي طـــايعين

انتقـل يا نـاس للـه الـدوام في شهـر رمضان وانتـم صـايمين
ليـلة الاثنـين من بعـد الصيـام في حـزن فقـد المكـارم ماسكين
ابكـوا المحمـود يا جمـع الانـام ابكـوا المحمود مـن قلـب حزيـن
مـن بكـى شيخ الشريعة مـا يلام لـه بكـن عيـونا والحـاضرين
ذروة الاسلام فـي راس السنـام مرتكـي للحـق واللـه مـا يلـين
مـا اخذ رشوه ولا ذاق الحـرام مخـلص للـه رب العـالمين
مرضي الخصمين فـي طيـب الكـلام لـو يطول الهـرج بالـه مـا يشين
للضعـوف معـين كايـام الصـرام ولليتـامى والـد شفـق حنـين
عبـدالله المشهور فـي شرق وشـام بـن خلف للديـن كالطـود الرزيـن
يا غـراب البـين حليـت الحـزام ثـم طويت الياس في حبـل متـين
خـذت شيخ الديـن للـه الدوام ثـم بقينـا كالرعـايا مجـلدين
بجـاه ابن عـدنان وصحـابه الكرام وبجـاه عـم والضحى واقـرأ وتين
يرحـم المرحوم فـي يـوم الزحام يدخـله بحمـاه رب الصـالحين
يا جميـع الناس اهـدوا له ختـام تبلغـه مـن غايته حـف سمين
اقـروا عليه الفـاتحه دوم الـدوام والعـزا يجبـر قـلوب الصـابرين
والبقـا باللـي بقى عقبـه همـام يصـلح اللـه شانهم منشي الغشين
ثـم صلى الله علـى سيـد الانام للامـير خصوص وانتـم سالمين